التعليم ومناهجه في الجزائر قبيل الإحتلال الفرنسي.

✍ د/فاطمة بوعمامة.
المدرسة العليا للأساتذة- بوزريعة.

تمهيد:

روجت الدوائر الإستعمارية الفرنسية أن الجزائر بلغت في القرون الماضية أسفل درجات الجاهلية والهمجية، إذ لم يكن للبلد أي تعليم منظم ولا حياة فكرية، فالأمة الجزائرية مؤلفة كلها من أميين يجهلون القراءة والكتابة وهذا من أجل تبرير سياستها التعليمية ودعم مطامعها. غير أن الواقع التاريخي يدحض مزاعم فرنسا إذ كان التعليم في الجزائر يتم في الجوامع، والزوايا والكتاتيب. وكان الأهالي الجزائريون يرسلون أولادهم إليها لحفظ القرآن الكريم وتعلم مبادىء العلوم الدينية واللغوية. وكان التعليم في المرحلة الأولى منتشر في مدينة الجزائر وضواحيها أكثر مما كان عليه في الدول الأوربية(1).

أولا المؤسسات التعليمية:

كان التعليم في الجزائر قائما في مؤسسات يشرف عليها الأهالي وكانت موزعة على الشكل الآتي:

1-الكتاتيب والمعمرات انتشرت الكتاتيب في كل أنحاء التراب الجزائري، وكانت وظيفتها الأساسية هو تحفيظ القران الكريم للأطفال وترتيله، ويشرف على تعليم الأطفال مؤدب. حيث يوجه إليها الطفل بعد بلوغ السنة الخامسة من عمره، فيتعلم فيها الكتابة، والقراءة،و الحساب وشهور السنة.

و إلى جانب الكتاتيب كانت توجد المعمرات وهي شبيهة بالكتاتيب القرآنية، كانت منتشرة في الأرياف والقرى ينتقل إليها الأطفال من مختلف الجهات من أجل حفظ القران الكريم وتجويده مع دراسة علوم أخرى(2).

و كتب الجنرال الفرنسي دوماس في تقرير له حول ظاهرة انتشار الكتاتيب فيقول: "ان التعليم الإبتدائي في الجزائر كان أكثر انتشارا مما يتصوره الإنسان عموما، فاتصالاتنا بالأهالي في الأقاليم الثلاثة، اظهرت بأن نصف السكان من الذكور يعرفون القراءة والكتابة "(3).

2- الزوايا: وهي من المراكز الثقافية في الجزائر احتلت الصدارة، وكانت الزوايا مقسمة إلى قسمين أساسيين هما:

القسم الأول: يتولى تحفيظ القران الكريم وإسكان عابري السبيل الذين تعلموا القراءة وحفظ القرآن في الكتاتيب.

القسم الثاني: يتولى تدريس علوم الدين كالفقه، والقصائد الدينية والنحوية، وقواعد النحو والصرف، والبلاغة والمنطق، وبعض المبادئ في علوم الفلك، وهذا النوع من الدراسة لا يحق إلا للمستظهرين أي حفظة القران الكريم (4).

ومن الزوايا نذكر: الزاوية القاسمية ببوسعادة والزاوية الحملاوية بوادي سقان بميلة وزاوية بن سحنون ببجاية وزاوية أبي القاسم البوجيجلي ببني ورتيلان وزاوية الحمامي بالأخضرية (5).

وأشهر الزوايا بمدينة الجزائر: زاوية أحمد بن براهيم وزاوية عبد العزيز، وزاوية سيدي سليمان بن عروسي، وزاوية رميلي، وزاوية سيدي قدور، وزاوية سيدي محمد العربي، وزاوية سيدي سعيد (6).

هذا وقد ذكر سعد الدين بن أبي شنب أن عدد الزوايا بالقطر الجزائري قبل الإحتلال الفرنسي بلغ أكثر من 349 زاوية موزعة على مختلف مناطق البلاد. وكانت الزوايا عادة ما تقترن بالمراكز والمؤسسات التعليمية مثل مدرسة سيدي أيوب بالقرب من الجامع الجديد ومدرسة حسن باشا بجوار كتشاوة كانت تابعة لكل واحد منها زاوية يسكنها الطلبة ويأخذون منها مؤنهم الشهرية . وهناك زوايا أخرى هي محل سكن الطلبة مثل زاوية القشقاش الخاصة بتدريس التوحيد واللغة، وزاوية شبارية المتخصصة في

العلوم العقلية والنقلية، منها زاوية سيدي أحمد بن عبد الله بسوق الجمعة، وزاوية محمد الشريف (7)

أما الشيخ باعزيز بن عمر فقد ذكر هو الاخر حوالي 40 زاوية وزيادة في منطقة الزواوة لوحدها(8).

3- المدارس:

كانت المدارس العلمية مؤسسات ثقافية تتمثل وظيفتها بصورة أساسية في تعليم مختلف العلوم الدينية وغير الدينية والجزائر لم تكن بها جامعات أو مدارس عليا بالمفهوم الحالي خلال العهد العثماني بل كانت دروس مساجدها الكبيرة وزواياها تضاهي أو تفوق مستوياتها في بعض الأحيان دروس الجامع الأعظم في المشرق العربي، كالجامع الأموي بدمشق والحرمين الشريفين(9)

و عرفت الجزائر في العصر الحديث انتشار الكثير من المدارس غير أنه يصعب تحديد عددها الموجودة في هذه الفترة وخاصة الإبتدائية إذ يصعب التمييز بين المدرسة، والكتاب، والزاوية. وتشير بعض المصادر أن العاصمة كانت تضم 299 مدرسة أشهرها القشاشة، واشتهرت قسنطينة بمدارسها التي بلغت عشية الإحتلال الفرنسي حوالي 90 مدرسة إبتدائية، و7مدارس ثانوية أشهرها المدرسة الكتانية التي شيدها صالح باي عام 1776م، وكان يعلم بها مختلف العلوم، كما اشتهرت تلمسان بمراكزها الثقافية ومدارسها، وقد أشار إليها الحسن الوزان (10) الذي أشاد باهتمام أهل تلمسان ببناء المدارس والإنفاق عليها ويشير الفرنسيون بعد احتلالهم لتلمسان بأنهم وجدوا خمسين مدرسة إبتدائية ومدرستين للتعليم الثانوي والعالي وهما: مدرسة أولاد الإمام ومدرسة الجامع الكبير (11) .

كما إشتهرت في الغرب الجزائري مدرسة مازونة التي بناها محمد الشريف الأندلسي في أواخر القرن 10هـ/ 16م (12)، والمدرسة المحمدية

بمعسكر التي شيدها الباي محمد الكبير فاتح وهران والتي حملت اسمه، ووصفها ابن سحنون بأنها مدرسة كاد العلم أن ينفجر من حولها (13).

هذا ويذكر الرحالة الفرنسي فانتو ردي بارادي إلى أن الجزائر كانت تضم ثلاث مدارس عليا في القرن 18م (14). و تتألف هيئة التدريس من أساتذة متفرعين، يتقاضون مرتبات من الأوقاف المحبوسة على المساجد والزوايا والمدارس ومن أساتذة متطوعين، يساهمون ببعض الدروس هذا بالإضافة إلى الأساتذة الزائرين (15).

و كانت المواد التي يدرسها أساتذة المدارس أو الشيوخ هي القواعد والمنطق والفلسفة ثم الهندسة وعلم الفلك وعلم الجداول وهذا الأخير يساعد على تحديد مواقيت الصلاة الشرعية الخمسة بكيفية دقيقة، ويكتمل التعليم بعلم الصخور لزخرفة المخطوطات ورسم الرّقيات لتفادي الأمراض ومعالجتها (16).

ثانيا محتوى البرامج والمواد المدروسة:

سيطرت العلوم الدينية واللغوية وبعض كتب التاريخ والسيرة النبوية على تعليم المواد العلمية كالرياضيات، والطب، والفيزياء، والكيمياء.

والملاحظ أن الكتب التي كانت متداولة بشكل واسع هي الكتب الدينية التي كانت تدرس في العالم الإسلامي أما فيما يخص الكتب الفقهية فكانت تدرس كتب المذهب المالكي بسبب إنتشاره بالجزائر.

هذا فإن الدروس التي كانت تلقى تختلف في بعض الاحيان من مكان لآخر، لأنه لم يكن هناك برنامجا موحدا كما هو معمول به حاليا. وأهم ما كان يدرس خلال هذه الفترة واكثر شيوعا.

1-تفسير القران الكريم بعدة كتب منها تفسير الثعالبي وتفسير السيوطي .

2-الحديث الشريف فعادة ما يقرأه الطالب بعدما يتمكن من العلوم الشرعية واللغوية ونذكر منها الصحيحان:

أ-صحيح البخاري: وهو كتاب في الحديث النبوي الشريف وعنوانه الكامل، الجامع الصحيح المسند المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه (17). وبلغ هذا الكتاب حد التقديس وكان على رأس الكتب التي أولاها العلماء والطلاب عنايتهم واهتمامهم.

ب- صحيح مسلم: وهو كتاب في الحديث اهتم بجمع الأحاديث الصحاح وصاحبه هو الامام مسلم ويحتوي هذا الكتاب على أربعة الاف حديث من غير المكرر وبالمكرر. خمسة وسبعين ومائتين وسبعة الاف حديث (18).

و فيما يخص علم التفسير فيدرسه الطالب عند انتهائه من حفظ القران الكريم فيقوم الشيخ بتفسير معاني الايات معتمدا في ذلك على الكتب المتداولة في المنطق ومنها من الكتب التي اشتهرت في تفسير القران، وهو التفسير المشهور بالجلالين نسبة إلى العالمين جلال الدين بن عبد الرحمان بن أبي بكر السيوطي المصري، وجلال الدين محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أحمد بن هاشم المحلي المصري الشافعي.

و تجدر الإشارة إلى أنه لم يشر إلى التفاسير التي اعتمدوها إلا ما كان من تفسير الجلالين.

3- المتون الفقهية: نذكر منها:

أ-متن ابن عاشر: وهو نظم في فقه المالكية فيما يتعلق من صوم وحج، وزكاة (19).

ب-الرسالة: وهي مختصر في فقه المالكية ومؤلفها هو أبو محمد عبد الله ألف الرسالة سنة 327هـ/938م وكان الغرض منها أن تكون كتابا تعليميا للصبيان وانتشرت في سائر بلاد المسلمين (20).

ج-المختصر: توجد ثلاث مختصرات إثنان منها لإبن الحاجب (21): أحدهما في الفقه المالكي ويعرف بمختصرات ابن الحاجب الفرعي، والاخر في الاصول ويعرف بمختصر ابن الحاجب الاصلي والمختصر الثالث للشيخ خليل.

د- الموطأ: وهو كتاب في الحديث للإمام مالك وهو من أوائل الكتب التي ألفت في الحديث و الفقه (22).

هـ- التهذيب: وهو كتاب في الفقه وهو عبارة عن تهذيب للمدونة (الاسدية)

4- علوم اللغة:

أما العلوم اللغوية ونحوها فقد كانت لا تخرج أيضا عن المواد التقليدية أهمها:

أ- الأجرومية:و يمكن تقسيم المواد المدرسة إلى قسمين ما هو نثر وما هو شعر.فالمتون الذي نظمها أصحابها هي التى يبتدء بها الطالب نظرا لسهولة حفظها وعمق هدفها وهي تخص سائر العلوم بالإضافة إلى أمهات الكتب التى دونها علماء المذهب المالكي (23).

ب- الألفية : هي في علم النحو ومؤلفها ابن مالك (24)،جمع فيها قواعد العربية وقد عرفت أيضا باسم الخلاصة وهي مكونة من ألف بيت من الشعر التعليمي .إلى جانب هذه العلوم اللّغوية كانت تدرس أيضا علوم الصرف بلامية ابن مالك في التصريف، و البلاغة بجوهرة الأخضري وغيرها.

ورغم سيطرة العلوم الدّينية واللّغوية فإن بعض المدرسين كانوا يهتمون بالعلوم البحتة، والعلوم التطبيقية فى مقدمتها علمي الحساب والجبر، كما وجه العلماء عنايتهم بالهندسة وعلم الفلك، إلاّ أن دراستها كانت لمعرفة الزوال وأوقات الصلاة والهلال ونحو ذلك وليس للملاحة ونحوها .

أما تدريس الطب فى الجزائر فلا يعرف أن أحد الممارسين قد عرف بتدريس الطب رغم وجود بعض المتطببين والصيادلة، ولكنه كان يتعلم بالعادة والممارسة لا بالتدريس والتحصيل(25).

و فيما يخص علوم النبات والحيوان والرّياضيات والكيمياء وعلم الملاحة لا نعرف من اشتهر بتدريسها .ولعلّ عدم تدريس الجزائريين لها هو ما جعل بعض الملاحظين الأجانب فى رأي المؤرخ أبو القاسم سعد الله يهاجمون بشدّة التعليم الجزائري.

5-هيئة التدريس:

من خلال هذه الدراسة نلاحظ أن مسيرة التعليم لم تنقطع فى الجزائر وما إنعدمت المدارس والعناية باللّغة العربية وعلومها وآدابها في جميع العصور الإسلامية منها القرن 19م.

فلم تزل وقتذاك المساجد فى المدن حافلة بالأساتذة والتلاميذ،و لم تزل الزواية بالقرى جامعة للمشايخ والطلبة وكلّهم يبذلون جهودهم فى الإلمام بالعلوم ونشرها.وحتى التعليم العالى لم يكن مهملا فى هذه الفترة فقد كان له نظامه الخاص يتكفل به مجلس بعاصمة الجزائر مؤلف من المفتيين المالكى والحنفى و القاضيين المالكى والحنفى. وكان ذلك المجلس يعين ناظرا يقوم على التدريس ويقدم للداي بالجزائر وللباي بقسنطينة وبوهران العلماء المترشحين لكراسي التدريس إذ كان ذلك النظام بمنزلة مدير التعليم العالي. كما كان المجلس يقوم بمقام المجلس الأعلى للجامعات العصرية.

و قد بلغ عدد الأساتذة بالمسجد الكبير بالعاصمة التسعة عشر أستاذا منهم الشيخ المفتي محمد بن الشاهد المتوفى عام 1792م، وأحمد بن عمار (26) والشيخ العربي الإمام المفتي بالمسجد الكبير، وكان في أطراف القطر أسماء لامعة من أمثال أبي رأس الناصر في الغرب وأحمد العباسي في الشرق (27). وكانت حلقات درس الجامع الكبير والجامع الجديد وجامع سفير وجامع سيدي رمضان هي التي يقصدها الطلاب بعد أن ينهلوا من الزوايا ومن المدارس القرآنية ومن أشهر الشيوخ: الشيخ مصطفى بن محمد بن عبد الرحمان المشتهر بالكبابطي المالكي درّس في الحديث والفقه والنحو والمنطق وبعض الفنون، وفي سنة 1243 هـ ولاه حسين باشا قاضيا على مدينة الجزائر (28)، والشيخ محمد بن الكاهية، والشيخ علي بن محمد المنجلاتي الجزائري الذي تولى فتوى المالكية بمدينة الجزائر عام 1823 وكان من عائلة قدمت للبلاد علماء وشعراء عرفهم العهد العثماني أمثال: عمر المنجلاتي وأحمد المنجلاتي (29) ومحمد بن موسى الذي تولى أيضا

الفتوى المالكية بالجزائر ومحمد المعروف بأخي السفار في الجزائر والشيخ بن عبد القادر المعروف بابن الأمين الذي تولى فتوى المالكية مدة طويلة بمدينة الجزائر والحاج حمودة الجزائري وغيرهم(30).

أما في قسنطينة كان بها علماء قائمين بدروس مختلفة في العلوم العربية منهم الشيخ محمد بن علي الطلحي الذي كان مجلس درسه عامرا بمسجد سيدي مسلم الحراري، والشيخ عامر بن شريط وعمار العربي الذي كان يدرس بمسجد القصبة، والشيخ محمد امبارك خطيب المسجد الكبير ومفتي المالكية، والمدرسة الكتانية ومدرسة سيدي لخضر.

أما الجهات الغربية فكانت تلمسان مقر العلوم يتوارثها الابناء عن الاباء في بيوتات شهيرة مثل عائلة شعيب وعائلة المجاوي الى أن هاجرها العلماء والعلم إلى وهران ومازونة منذ تأسيسها في القرن الحادي عشر هجري (31).

الخاتمة:

هكذا كان العلماء الجزائريون في السنين الاخيرة من عهد الجزائر في ظل الحكم العثماني واوائل الاستعمار الفرنسي قائمين بواجبهم نحو اللغة العربية والامة يخدمون العلوم في مساجد العواصم وكذلك في المدارس التي بناها محبوا العلم وانصاره من الولاة وذوي البر والاحسان.

ولم يكن التعليم وقتئذ مختصرا على مساجد المدن ومدارسها بل كانت القرى تعرف هي ايضا حركتا علمية حتى وإن كانت المواد مقتصرة على العلوم الشرعية. ولا شك أن ذلك يعود بالدرجة الاولى إلى كون القران الكريم والحديث هما المنبعان الذي يستمد منها الجزائريون الوان تفكيرهم وانماط حياتهم.

الهوامش:

1-أنظر haber (s): Lettre sur la colonisation de possessions francaises dans le nord de l Afrique, geneve,1837,p 850-

2- أحمد مريوش: الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني، منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر 2007، ص 20- 21.

3- العيد مسعود:حركة التعليم في الجزائر، مجلة سيرتا، عدد 3، 1980، ص 64.

4- ابن ميمون: التحفة المرضية في الدولة البكداشية، ص 60.

5- محمد نسيب: زوايا العلم والقرآن بالجزائر، الجزائر دار الفكر، د-ت، ص 106.

6- أنظر: Saidouni(N-E):L Algerois rural a la fin de l époque ottomane(1791-1830),beyrouth, dar el gharb el islam, 2001, pp 318-319.

7- بن شنب:النهضة العربية بالجزائر، مجلة كلية الآداب، جامعة الجزائر، العدد 1، ص 37.

8- باعزيز بن عمر : الزوايا بالزواوة، مجلة الشهاب، 1933، ج1، ص 15.

9- أحمد مريوش: المرجع نفسه ص 15.

10- الحسن الوزان: وصف إفريقيا ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت، الغرب الإسلامي 1983، ص166.

11- أحمد مريوش: المرجع نفسه.

12- سعيدوني، المهدي بو عبد لي: الجزائر في التاريخ، العهد العثماني، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص 27.

13- ابن سحنون: الثغر الجماني، مخطوط رقم 12، ورقة 10.

14- أنظر: Venture de Paradis: Alger au 18eme siècle, alger, fagnan, 1898, p 158

15- العيد مسعود: المرجع السابق، ص 67.

16- عبد الحميد زوزو: نصوص ووثائق في تاريخ الجزائر المعاصر، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ص 205-206.

17- أبو عبيد الله محمد بن إسماعيل البخاري: صحيح البخاري، بيروت، المكتبة الثقافية، د-ت، ص 2.

18- أبو الحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري: صحيح مسلم مطبعة دار الكتب العربية، د-ت.

19- عبد الواحد بن أحمد بن عاشور: متن ابن عاشر في مذهب الإمام مالك، الجزائر المطبعة الثعالبية، 1924.

20- أحمد محمدي رزق الله: المصدر السابق، ص 138.

21- المصدر نفسه.ص 426.

22- مالك بن أنس الأصبحي: الموطأ، رواية محمد بن الحسن الشيباني، تحقيق عبد الوهاب عيد اللطيف، بيروت، دار العلم، د-ت.

23- أحمد الطاهري: الدر المنظور شرح مقدمة إبن أجروم، غرداية، مطبعة الواحات، د-ت.

24- ابن مالك الأندلسي: ألفية بن مالك، بيروت، دار الكتب العلمية، 2001.

25- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 354.

26- أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، 2009، عالم المعرفة، ج 2، ص 14.

27- المرجع نفسه، ص .15

28- محمد الصالح الصديق: أعلام من المغرب العربي، الجزائر 2007، ص 212-213.

29- تاريخ عبد الحميد بيك: تقديم وتعليق أبو القاسم سعد الله، الجزائر، دار الغرب الإسلامي، الطبعة الأولى، 200، ص 153.

30- أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء، ص .15

31- المرجع نفسه.